محمـــــد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

منـذ شهرين خفت صوت كان يقصف فى أجواء الشرق ليوقظه ، وخبا برق كان يتلألأ فى الظُلَم المتراكمة يضيئها ، وطفئ مصباح كان نوراً للسالكين فى هذه الغياهب ، وهدى للحائرين فى هذه الفتن ، وسكن قلب كان يحاول أن يزلزل الأرض بخفقاته، وينشىء الناس نشأة أخرى بإيمانه ، وهمدت نفس حرة كانت تكبر على حدود الأوطان والحدثان ، والزمان والمكان

منذ شهرين فقد الناس عامة ، والمسلمون خاصة شاعراً مفلقاً ، ومفكراً مُبدعاً ، وفيلسوفاً حراً ؛ وافتقد شباب المسلمين فى الهند وغيرها حامل اللواء الذى كان يدعو إلى السموّ فوق كل عقبة ، والسير وراء كل غاية ، ويناديهم صباح مساء

آه للعشق الذى قد ذهبا ملأ الأرض ضيـاء وخبا
رُزق الميلاد فى أرض الحرم وأتاه الموت فى بيت الصنم

كلا. ما خفت الصوت ، ولا خبا البرق ، ولا طفئ المصباح، ولا سكن القلب الكبير، ولا همدت النفس الحرة ، فكل أولئك خالد فى آثار إقبال

— ٢ —

كان محمد إقبال عقلا كبيراً ، وقلباً عظيما ؛ درس ووعى مدنية الاسلام ومدنية أوربا ثم قام ناقداً لا مقلداً ، وحراً لا عبداً؛ فكان من عظم عقله، ووقدة ذكائه ، وكبر نفسه ، وسموّ قلبه ، ومن العلم الواسع والالهام الالهي هذه الآثار الخالدات

وهب إقبال فكره وقلبه للمسلمين يوقظهم ويعلمهم ، ويصف داءهم ودواءهم ، ويُشيد بماضيهم ، ويبشر بمستقبلهم ، ويصوغ وحى عقله وعاطفة فؤاده شعراً يوقظ النفوس الهاجدة ، ويشعل الهمم الخامدة ، بل يكاد يبعث الأموات ، ويحيي الموات ، تنسم فيه نفحات صوفية ، وتنير فى جوانبه لمعات إلهية . وقد صدق شاعر الاسلام محمد عاكف بك رحمه الله إذ قال : لو أن جلال الدين الرومى صاحب المثنوى بعث فى هذا العصر لكان محمداً إقبالا .

— ٣ —

نظم إقبال عشر منظومات نشرت على هذا النسق :

١ — أسرار خودى (أسرار الذاتية)
٢ — رموز بى خودى (رموز اللاذاتية)
٣ — بانك درا (صوت الجرس)
٤ — بيام مشرق (رسالة المشرق)
٥ — زبور عجم (زبور العجم)
٦ — جاويد نامه (كتاب جاويد سماه باسم أحد أبنائه)
٧ — مسافر
٨ — منظومة نظمها أثناء الحرب الحبشية وجعل عنوانها (وبعد فما العمل يا أمم الشرق)
٩ — ضرب كليم
١٠ — بال جبريل (جناح جبريل)

ومات وهو ينظم أهنك حجاز (لحن الحجاز)

ومن هـذه المنظومات التسع ثلاث بالأوردية والأخريات بالفارسية

وله مؤلفان باللغة الانكليزية : الأول « تطور ما وراء الطبيعة فى إيران » والثانى محاضرات أراد فيها أن يبنى العقائد الاسلامية على أسس جديدة وسماها « إصلاح الأفكار الدينية فى الاسلام »

ولا يتسع الوقت للكلام عن هذه المنظومات وما ضمنت من شعر رائع وفلسفة عالية ، فحسبي أن أشير إلى كتابيه أسرار خودى ورموز بن خودى ، فقد شرح فيهما فلسفة فى الذاتية واللاذاتية ، وبين أن العالم قائم على الذاتية وأن على الانسان أن يقويها ما استطاع ، ثم بيّن كيف تلتئم الذاتيات القوية فى الجماعة واتخذ من تاريخ المسلمين رجالهم وجماعاتهم مُثُلا لتطبيق هذه الآراء

وكذلك أشيرُ إلى كتابه « بيام مشرق » الذى جعله جواباً للشاعر الألمانى جوته صاحب « ديوان الغرب » وفيه صوَر من الشعر والفلسفة يفخر بها الشرق على الغرب ، وفيه نقد لكثير من مذاهب أوربا وفلاسفتها

ثم أشير إلى كتابه جاويد نامه الذى قصّ فيه رحلته فى الأفلاك ولقاءه عظماء المسلمين فى العصور القريبة والبعيدة . وكان دليله فى هذه الرحلة جلال الدين الرومى ، ولهذا الرجل العظيم على إقبال تأثير عظيم

— ٤ —

منظومات إقبال فيها سمة النفس العظيمة التى لا تحد ؛ ولكن يستطيع قارئها أن يتبين أصولا خمسة يدور حولها كثير من شعره :

١ — الحياة هى الجهاد الدائم وتسخير قوى العالم

« ما الحياة ؟ هى أن تأسر نفسك هذا العالم . فكيف تجعل نفسك لهذا العالم أسيرة ؟ »

٢ — وإنما يصلح الانسان للجهاد بتقوية نفسه ، واستخراج كل ما فيها من قوى . وقد بنى على هذا مذهبه فى الذاتية وشرحه فى كتاب « أسرار خودى » ...

ومن كلامه فى پيام مشرق : « أخرج النغمة التى هى أساس فطرتك . أيها الضالّ عن نفسه ! خل نفسك من نغمات غيرك . » ويقول على لسان اليراعة والحباحب : « لست كالفراشة اصطلى بنار غيرى . ولكنى أشتعل بنفسى ولا أحل لأحد منّة ؛ إذا صار الليل أحلك من عين الظبى أرت بنفسى لنفسى الطريق »

وتقتضى هذه الذاتية الحرية ، وحرّية اقبال ألا يحدّ النفس شئ حتى الزمان والمكان

هو بالأمس خبير بغد وهو اليوم نجئ الأبد

وقد بين فى أسرار خودى الفرق بين العبد والحر فى قوله :

« العبد ضال فى ليله ونهاره ، والحر يضل فى قلبه زمانه . العبد يخيط الليل والنهار على نفسه ، وينسج من الأيام كفنه ، والحر ينسج على الزمان عزائمه — العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه السبح فى الهواء ، وصدر الحر الهمام ، قفص لطائر الأيام . فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وخواطره تكرار قائل . ومقامه من الجمود واحد ؛ وصوته بالليل والنهار راكد . والحرّ كلّ حين خلاق يسكب نغمات جديدة فى الآفاق ، فطرته لا تحتمل التكرار ، وليست طريقه حلقة البركار ، العبد فى سلاسل من زمانه ، والقضاء والقدر ورد لسانه . وهمة الحرّ مشيرة على القضاء ، تصوّر يده الحادثات كما تشاء »

٤ — العلم وحده حجاب دون الحقائق وعقبة فى سبيل الحياة — كما يقول ناحت صنم وبائع صنم وعابد صنم لابد مع العلم من العشق . وهو يذهب فى هذا مذهب الصوفية كفريد الدين العطار فى الكلام على العلم والعشق ، وهم يعنون بالعشق الوجدان اليقظ وهذه الحرقة التى تسمو بالانسان عن السفاسف إلى العظائم وتدفعه إلى الحق والخير ، وتوجهه إلى الله . وقد ضرب فى ذلك مثلاً ابن سينا وجلال الدين الرومى ؛ قال : ضل أبو علىّ فى غبار الناقة ونالت يد جلال الدين ستر الهودج ، هذا دار مع الفتاة على وجه الماء وذاك غاص فى اللجة فظفر باللآلئ

٥ — هذه الأصول فى فلسفة إقبال لها مُثل لا تحصى فى مقاصد الاسلام وسننه وتاريخه . وهو يكره النزعات الوطنية الضيقة ويشيد بالأخوة الاسلامية العامة . وقد بدأ نشيده الذائع فى الهند والذى يسمى النشيد الملى بقوله : وحين وعرب هماراً هندوستان هماراً مسلم هين هم ، وطى هم ساراجهان همارا « الصين والعرب انا والهند لنا ، نحن المسلمون وطننا كل هذا العالم »

وقال فى پيام مشرق : إن الناس لاموا طارق بن زياد حينما أحرق السفن وقالوا هذا بعيد من الشرع والحزم . فسل سيفه وقال الأرض كلها ملكنا لأنها ملك ربنا »

— ٥ —

كان إقبال واثقاً بنفسه ، معتداً بآرائه يتدفق فى شعره تدفق البحر لا يعرف خوفاً ولا تردداً . وكان يرى أحياناً أنه بشير المستقبل ، وأنه صوت شاعر الغد ، وأن العصر الحاضر لا يدرك معانيه ، والجيل القائم ليس كفء كلامه

يقول :

« أنا شمس حديثة الميلاد ، لا تعرف رسوم هذا الفلك ، كما يتمر النجوم ضياؤها ويرقص على صفحات البحار شعاعها ... أنا نغمة لا تبالى بالمضراب ، أنا صوت شاعر الغد ... إن عصرى لا يفهم الأسرار .. أنا يائس من الأصحاب القدماء ، وإن طورى يشتعل ليظفر بكليم ، بحر أصحابى كالقطرة لا تزخر ، وقطرى كالبحر فيها طوفان مضمر . تتمتى من عالم آخر وجرسى لغير هذه القافلة ... كم مرت بهذه الصحراء قوافل تمشى الهوينى كما تسير الناقة ولكنى عاشق الصباح إيقانى وضوضاء الحشر طليعتى أنا نغمة ولكنها أكبر من الوتر ، ولست أشفق على هذا العود أن ينكسر

كم شاعر ولد بعد الموت أغمض عينيه ليفتح عيوناً ويدا من وراء الموت كما تنبت الأزهار فى تربته .

ذلكم الرجل الذى فقدناه أمس ، والذى يدرك عارفوه ماذا فقد المسلمون منه .

كان اقبال يتمنى أن يموت فى الحجاز فان تكن فاتته هذه المُنية فله بعض العزاء فى أن يستمع العالم الحديث عنه من البيت المقدس ، من المسجد الأقصى من قبلة المسلمين الأولى

عبد الوهاب عزام